بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: ١٠٢

الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم

المبحث: سورة الإنسان

التاريخ: ١٩ / ١١ / ٢٠٢٤م

كتبه: عبدالله ضيف الستري

وصلنا على ما زال الكلام في الآية الثامنة والعشرين: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

شرحنا سياق هذه الآية وارتباطها بالآيات السابقة، والغرض من هذا الكلام من جهة هو تثبيت النبي الأعظم ﷺ واتباعه والمؤمنين، ومن جهة هو رسالة لهؤلاء المكذبين.

ما بقي في هذه الآية الشريفة يوجد مطلبان:

المطلب الأول: تفسير كلمة الأسر ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾.

المتبع علماء التفسير قد يستظهر تعدد الآراء في تفسير هذه الكلمة، فالبعض من هؤلاء يفسر الأسر بالخلق ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي شددنا خلقهم وأحكامنا خلقهم، فالأسر بمعنى الخلق. ولعل هؤلاء هم الأكثر، خصوصاً قداماء علماء التفسير من العامة والخاصة.

هذا القمي في تفسيره يقول: "أسرهم يعني خلقهم". وفي معاني القرآن للفراء -الذي هو من أئمة اللغة- يصرح ويقول: "الأسر الخلق -ثم يبين ذلك- تقول لقد أسر هذا الرجل أحسن الأسر، كقولك خلق أحسن الخلق". وهكذا في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، وعدة من المتأخرين -أيضاً- التحقوا بركب هؤلاء وفسروا الأسر بمعنى الخلق. هذا القول الأول بحسب الظاهر.

القول الثاني: ما عليه مقاتل بن سليمان في تفسيره يقول: الأسر بمعنى القوة، فيُقصد من الآية أسرة الشباب أي قوة الشباب ثم يبين فيقول: "ما خلق الله شيئاً أحسن من الشباب منور الوجه أسود الشعر واللحية قوي البدن". ف ﴿شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي كانوا في قوة الشباب.

وبالتالي ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي بدلناهم إلى حالة الهرم والشيخوخة التي هي حالة الضعف والشيب وانحلال القوى وما شابه ذلك.

وفي تفسير السمرقندي -تفسير بحر العلوم- قال: الأسر بمعنى الخلق كالتفسير الأول، لكن الخلق هنا ليس بمعنى مجرد المخلوق على نحو الإجمال، بل المقصود شددنا مفاصلهم بالعصب والعروق والجلد لكي لا تنقطع المفاصل ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ أي -بحسب تعبيره- شددنا قبُلهم ودبرهم حتى لا يخرج منه الماء والغائط، فيعني القوة الماسكة، فالأسر استعملت بمعنى القوة الماسكة.

هذه أقوال في تفسير هذه الجملة من هذه الآية المباركة.

ينبغي أن نلتفت إلى نكتة إلى أن الكثير من علماء التفسير يعتمدون في تفسيرهم على تفسير محصل المعنى، لا أنهم يريدون الإتيان بمرادف للكلمة، وما نحن فيه من هذا القبيل ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ مهما كان الأسر في اللغة فلا يهمننا، وإنما بالنتيجة أن هؤلاء أحكمنا خلقهم، سواء جعلت الأشهر بمعنى الخلق أو الأسر بأي معنى كان من المعاني التي سوف نذكرها، فيكون هذا التفسير تفسير حسب نتيجة المعنى، لا أنه يريد أن يأتي بكلمة مرادفة للأسر. وإلا فالأسر -هذه الألف والسين والراء- في اللغة العربية بمعنى واحد وهو الحبس والإمساك. ومنه الأسير؛ لأن الأسير يمسك ويقيد ويحبس. ف ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ فشددنا أسرهم بحسب الدقة اللغوية أي شددنا قيدهم، شددنا إمساكهم، فلهم خلق متماسك قوي، فكل ما ذكر من التفسيرات السابقة التي ذكرناها تكون -في الواقع- استنتاج من هذا المعنى اللغوي ف ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ بمعنى أنه خلقناه في أحسن تقويم، هؤلاء الآثمون والمكذبون والكافرون بما نزل على رسول الله ﷺ ماذا يظنون من أنفسهم؟ ألسنا نحن الذين أحكمنا خلقهم وشددنا أسرهم؟ فالأسر بحسب المعنى اللغوي هذا هو معناه، فالأسير هو الذي يشد قيده.

فبالتالي لا نحتاج إلى تصوير وجود خلاف بين المفسرين، وإنما ما اعتقده أن هؤلاء المفسرين لم يكونوا بصدد المعنى اللغوي لكلمة الأسر، فلا نعترض بما قيل أنه في اللغة لا يوجد في القواميس والمعاجم أن الأسر بمعنى الخلق إلا هؤلاء المتأخرين من المفسرين من أئمة اللغة الذين ظنوا أن المفسرين فسروا الأسر بمعنى الخلق.

هناك فرق كبير بين التفسير بنتيجة المعنى وبين التفسير بالإتيان بالمرادف، وأكثر التفسيرات من قبيل التفسير بمحصل المعنى، ومحصل المعنى أن هؤلاء خلقهم محكم ومشدود ومنضبط وفي أحسن تقويم. لكن لا بمعنى أن الأسر بمعنى الخلق في هذا اللغة.

المطلب الثاني: يرتبط بقوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

قد يقال: إن الآية غير واضحة، نبدل أمثال هؤلاء لا أننا نبدل هؤلاء؟ أي من كان مثل هؤلاء نبذله، أما هؤلاء لا نبذلهم. فقد يقال هذا هو الظهور الأولي للآية الشريفة.

لكن قد يجاب عن ذلك بأحد جوابين:

الجواب الأول: أن القضية من باب الكناية، عند العرب تقول -مثلاً- مثلك لا يبخل، فالذي لا يبخل مثلك، أما لست بخيل، فيقولون إن هذا كناية، فبشكل صريح ما وصفت المخاطب بالكرم، وإنما قلت من كان مثل هذا الرجل يكون كريماً، ولازم ذلك أن هذا الرجل -أيضاً- كريم وإلا لا يكون مماثلاً. فبدلنا أمثال هؤلاء بالكناية يعني بدلنا هؤلاء.

الجواب الثاني: لا نحتاج إلى ذلك؛ لأنه عملية التبديل بحاجة إلى طرفين، هناك مبدل ومبدل منه، أي قد يكون معنى الآية بدلناكم بأمثالكم، أنتم أحد طرفي التبديل والأمثال أحد طرفي التبديل الآخر.

ولعل هذا هو المعنى الصحيح بملاحظة الآيات المشابهة لهذه الآية، مثلاً في سورة الواقعة: ﴿عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾^١. وفي سورة النساء: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا﴾^٢ هذا تبديل أيضاً. وفي سورة إبراهيم: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^٣.

ملاحظة أمثال هذه الآية تدل على أن المقصود المعنى الثاني.

لكن بقي ما معنى نبذلكم بأمثالكم؟ هل نأتي بأمثالكم ويكونون كافرين أو نأتي بأمثالكم في الخلق ولكن لا يكونون مثلكم في العقيدة؟

ظاهر سياق الآية ملاحظة الآيات المشابهة هو الثاني، أن هؤلاء المستبدلين في مكان هؤلاء هم أمثال لهم في الخلق، ولكن ليسوا أمثالاً لهم في العقيدة.

هذا هو الظاهر من هذه الآية المباركة. وبهذا يتم الكلام في الآية الثامنة والعشرين.

١ الواقعة: ٦١

٢ النساء: ١٣٣

٣ إبراهيم: ١٩